الإبستمولوجيا

تمهيد

تكتسي الدراسات الإبستيمولوجيا التي تتناول قضايا المعرفة عامة والفكر العلمي خاصة أهمية بالغة في الوقت الحاضر ذلك لأنها تفيد الدارس او الطالب بعقلية نقدية بناءة . تحرره من التعصب لعلم ما أو نظرية ما أو موقف ما . وتعلم على تمرين عقله على الاتساع والمرونة واعتماد المناهج وفق موضوعها وظروفها والتحكم في استخدامها . الإبستيمولوجيا تفتح المجال للإستفادة من كل العلوم ونقدها والتضلع فيها من أجل استيعابه وتمثلها وتذوقها وتطويرها ونحن في المحاضرات سنضطر إلى استخدام لغة ومفاهيم ومصطلحات هذه العلم وهذا سيكون صعبا في البداية لكن لابد من ترويض العقل عليه حتى نقيم جسورا بين المعارف المختلفة . وهذا ما تسعى إليه الجامعات والكليات المتفتحة . وفي هذا السياق نقول :

إن معالجة مفهوم أو موضوع الإبستمولوجيا يتطلب حصر المفاهيم ذات العلاقة به ، لأن الباحث في هذا المجال يجد نفسه امام عدة مصطلحات منها نظرية المعرفة أو فلسفة العلوم والإبستمولوجيا . وأن هذه المفاهيم تنتمي بشكل عام إلى مدارس فكرية فلسفية ، فنجد نظرية المعرفة كمصطلح ومفهوم متداول في المدرسة الألمانية ، وفلسفة العلوم مستعملة في في المدرسة الأنجلوسكسونية ، والإبستمولوجيا موظفة بشكل بارز في المدرسة الفرنسية ، وهذا لا يعني اقتصار المفهوم على مدرسة معينة بل نجد أحيانا أن المفاهيم الثلاثة موظفة في نص واحد . كما أن تداول هذه المفاهيم في الفكر العربي يعكس علاقة الباحث العربي بهذه المدرسة أو تلك . ويبررون ذلك بأن هذه المفاهيم الثلاثة الكبرى المحددة لحقل المعرفة العلمية .

فماذا تعني نظرية المعرفة ؟

وما يقصد بفلسفة العلوم ؟

وما هي الإبستمولوجيا وبنيتها المعرفية ؟

مفهوم نظرية المعرفة :

نظرية المعرفة مجال فلسفي يلعب دورا في تطور العلوم الطبيعية والإنسانية وبالمراجعة الجذرية للأسس النظرية في علم من العلوم أو مجال من مجالات المعرفة العلمية الخاصة وأن تطور العلمي المعاصر يتسم بالتعقد والتنوع المستمر لأنظمة المعرفية ولأدوات البحث وتعقد البنية المعرفية العلمية كالتأمل النظري في البنيات المنطقية وعلاقتها بالواقع الموضوعي .

يمكن القول أن مضمون مفهوم نظرية المعرفة هو البحث في العلاقة بين الفكر والوجود أو علاقة الذات والموضوع من حيث الأولوية ، وكذلك قدرة الإنسان في تحصيل المعرفة والوصول إلى الحقيقة والمصادر والأدوات التي تتخذها الذات في بلوغ المعرفة . وبتعبير آخر يتكون موضوع نظرية المعرفة من نوع العلاقة التي تقيمها الذات بالموضوع والوسائل والأدوات التي نستعملها في الحصول على المعرفة .

يرى كانط أن كل معرفة تبدأ من الخبرة وذلك حيث تؤثر المنبهات في الحواس فتستيقظ الملكة المعرفية فتحدث لدى الفرد تمثلات Représentation و من ثم تدفع العقل الفعال إلى المقاربة بين هذه التمثلات فتحدث المعرفة بالأشياء أو ما يسمى بالخبرة .

مفهوم فلسفة العلوم

يتفق الباحثون أن علاقة الفلسفة بالعلم قديمة (فرانسيس بيكون ، جون لوك ..) وعرفها أوغست كونت بقوله : (إنها الدراسة الخاصة للمفاهيم العامة لمختلف العلوم من حيث أن هذه الدراسة خاضعة لمنهج واحد ، ومن حيث أنها أجزاء مختلفة لمفاهيم ومناهج العلم قصد تطبيقها في مجالات لم تحقق بعد العلمية .

مفهوم الإبستمولوجيا

لفظ ابستولوجيا Epistémologie مصطلح جديد صيغ من كلمتين يونانيتين هما Epistémè ومعناها علم و logos ومن معانيها علم ، نقد ، نظرية ، دراسة ...فالابستمولوجيا ، إذن من حيث الاشتقاق اللغوي هي علم العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم وهذا ما لا يختلف عن معناها الإصلاحي .

يعرف لالاند Lalande في معجمه الفلسفي ، الإبستمولوجيا بانها فلسفة العلوم ، ثم يضيف ولكن بمعنى أكثر خصوصية ، فهي ليست بالضبط دراسة المناهج العلمية ، هذه الدراسة من اختصاص الميتودولوجيا التي تشكل جزءا من المنطق ، وليست كذلك تركيبا أو استباقا للقوانين العلمية . وإنما هي أساسا الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم ولفروضها ونتائجها ، بقصد تحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها و حصيلتها الموضوعية .

يتضح من هذا الطرح أن هناك خيوط ترابط دقيقة بين لإبستمولوجيا والفلسفة بكيفية عامة وبينها وبين نظرية المعرفة بكيفية خاصة . وإذا كان كثير من الباحثين المعاصرين يرون ضرورة التمييز بينهما استنادا إلى أن الإبستيمولوجيا تهتم بالمعرفة العلمية وحدها ، في حين تتناول نظرية المعرفة بشكلها التقليدي المعروف ، أنواع المعارف كلها فان هذا الفصل لا يخلو من الغلو والاصطناع .

نعم من الممكن دوما التمييز بين المعرفة العلمية التي تعتمد القياس والتجارب وتستعين بأدوات القياس الدقيقة التي تكشف للإنسان عم تعجز عن بلوغ حواسه . والتي تخضع للنقد الصارم والمراجعة المتواصلة ، وبين المعرفة العامية الحسية التي بامكان عامة الناس الوصول

إليها بواسطة حواسهم وعقولهم وخبراتهم اليومية. كما أنه يمكن التمييز بين هذين النوعين من المعرفة وبين نوع ثالث من المعرفة التي يعبر عنه بالمعرفة الاستشراقية أو الحدسية أو الصوفية .

لكي تصبح الإبستيمولوديا علما مستقلا لا بد من موضوع واحد ومحدد . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، يمكن تبرير عدم التمييز بين الإبستيمولوجيا والميودولوجيا و نظرية المعرفة وفلسفة العلوم ، لكونها جميعا متداخلة ومتشابكة إلى الحد الذي يصعب معه تقدير ما إذا كانت قضية ما من قضايا المعرفة تخص الواحدة منها دون الباقي . فإذا كانت الابستيمولوجيا هي الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها بقصد تحديد قيمتها ونفعها ، فإنه من الصعب القيام بنقد نتائج العلوم دون البدء أولا بفحص المناهج وهذا من اختصاص الميتودولوجيا ، كما أن نقد النتائج وتأويلها هو من اختصاص فلسفة العلوم ، ونظرية المعرفة .

ومع ذلك فإن الابستيمولوجيا أخذت تفرض نفسها في العصر الحاضر كعلم قائم بذاته يختلف من عدة وجوه عن كل واحدة من تلك الدراسات والأبحاث التي أشرنا إليها . ولذلك كان من المفيد في مدخل كهذا البدء بإبراز أوجه الاختلاف هذه حتى نتمكن من تكوين صورة واضحة بقدر الإمكان عن هذا اللون الجديد من الدراسة والأبحاث . علما أن الصورة الواضحة والكاملة عن علم من العلوم لا يمكن الحصول عليها إلاّ بعد الانتهاء من عرض جميع مسائله .